الشيخ عز الدين القسّام

وجع فى قلب إسرائيل

- اسمه مازال يرعب «إسرائيل» رغم استشهاده سنة ١٩٣٥م.
- القسّام طالب أزهرى جاء من سوريا ليجاهد ضد الإنجليز واليهود فى فلسطين.
- وضع أسس المواجهة الشاملة ونفذ عمليات رائدة ضد الأعداء.

اسمه يثير الرعب والفزع، تحرك اتباعه تصاحبه حالة من إعلان الطوارئ، فى صفوف الجيش الإسرائيلى، كتائبه هى أخشى ما يخشاه قادة اليهود، رغم أنه قد استشهد سنة ١٩٣٥م فهو قائد أول ثورة مسلحة ضد البريطانيين واليهود فى فلسطين. وصاحب أول تنظيم جهادى يخوض الحرب دفاعًا عن عروبة فلسطين.

كان خير مثال لرجل الدين المجاهد والمعلم، وباعث الوطنية والهمم فى النفوس الأبية، يظل اسمه علمًا من أعلام النضال العربى فى العصر الحديث. عندما يذكر اسمه تتزلزل الأرض تحت أقدام اليهود.

هو الشهيد المناضل عز الدين القسام، الذى تزرع كتائبه الخوف وتبث الرعب داخل إسرائيل بعملياتها الاستشهادية التى ينفذها تلاميذ مدرسته البطولية «كتائب عز الدين القسام».

وهكذا شأن الرجال الأبطال الذين عاهدوا الله على التضحية والفداء، منهم من قضى نحبه شهيداً فى سبيل الله والوطن ومنهم من ينتظر.

هو شيخ القسامية، ومؤسس تنظيمهم وقائده، وأحد أوائل شهدائه، وُلِد فى بلدة «جبلة» السورية، جنوب اللاذقية، من أسرة متوسطة الحال، كان أبوه صاحب كُتّاب يُعلمُ فيه الأطفال أصول القراءة، وحفظ القرآن.

تلقى عز الدين القسام دراسته الابتدائية فى بلدته، ونشأ على هدى الدين، والصلاح والفضائل. ذهب وهو فى الرابعة عشرة إلى القاهرة للدراسة فى الأزهر الشريف، برفقة أخيه «فخر الدين».

درس فى الوطنية

أمضى القسام فى الأزهر سنوات أخذ فيها العلم على أبرز أئمته، ومنهم الشيخ «محمد عبده»، نال بعدها الشهادة الأهلية، وقد تركت سنوات الدراسة فى الأزهر، فى نفسه آثارًا بعيدة، فقد كانت مصر تعيش فى حالة غليان وطنى فى أثناء هذه الفترة، التى أعقبت الاحتلال الإنجليزى وهزيمة العرابيين، شهدت هذه الفترة أيضا بروز العديد من الزعماء الوطنيين، الذيهن حملوا الدعوات الإصلاحية التى كانت تؤكد أن من أهم عوامل وأسباب استقلال وحفظ الأمة، الاتحاد والشورى، وعدم الاعتماد على الأجنبى.

خلال سنوات إقامته فى مصر، ودراسته بالأزهر تشرب عز الدين القسام روح الوطنية والاستقلال، ووعى الدرس جيدًا، فالاستقلال لا يأتى إلا من خلال النضال، وعدم الاعتماد على الغير فى الحصول على هذا الاستقلال والحرية.

مُعلم الوطنية

عاد القسام إلى بلدته، وهو يحمل بين جوانحه بوادر وبذور ثورة، ووعى وإيمان بضرورة اتحاد والتقاء كل الشعب حول هدف واحد، وهو الاستقلال والتحرر، وبناء الوطن على أساس من القيم والأخلاق والمبادئ الوطنية.

آمن عز الدين القسام أن رجل الدين ليس مُعلّم الفروض والعبادات فحسب، بل معلم الإباء والوطنية وعزة النفس، كان دور رجل الدين عنده دفع المؤمنين إلى رفض التواكل والاستكانة، وعدم عزلهم عن قضايا شعبهم.

الفكرة الإسلامية

بعد عودته إلى «جبلة» سنة ١٩٠٣ لم يلبث القسام أن قرر السفر إلى تركيا لمزيد من الدراسة والاطلاع، وهناك زادت خبرته ومعرفته بطبائع الشعوب، وزاد إيمانه بالفكرة الإسلامية الداعية إلى الجهاد، ودور رجل الدين فى تزكية هذه الروح فى أبناء الأمة.

ومرة أخرى يعود إلى قريته، ليحل مكان والده فى تعليم الأطفال بالكُتَّاب،

أخذ يعلمهم العلوم الحديثة، وأصول القراءة والكتابة، إلى جانب تحفيظ القرآن الكريم.

ويقوى دوره وتأثيره فى الناس بعد أن أصبح إمامًا لمسجد المنصورى فى «جبلة» حيث غدا بخطبه ودروسه وسلوكه الملتزم، موضع احترام الناس، وامتدت شهرته وسمعته الحسنة إلى المناطق المجاورة، وربطته بكثير من سكانها صداقات متينة.

كان أول تجسيد لمفهومه عن رجل الدين المجاهد العلمى، حين قاد مظاهرة طافت شوارع بلدته، تأييدًا للعرب الليبيين، يوم هاجم الإيطاليون ليبيا. وقد دعا «القسام» الناس إلى التطوع لقتال الإيطاليين، وكوّن قوة من المتطوعين وصلت إلى ٢٥٠ متطوعًا، وقام بحملة جمع تبرعات لتأمين ما يلزمهم ويلزم أسرهم، لكن السلطات العثمانية لم تسمح لهم بالسفر لنصرة إخوانهم الليبيين.

المقاومة ضد فرنسا

ولأنه كان يكره الاستعمار. لذا رفع راية المقاومة ضد فرنسا فى الساحل الشمالى لسورية، وكان فى طليعة المجاهدين الذين حملوا السلاح فى ثورة جبال صهيون (١٩١٩ - ١٩٢٠) مع المرحوم عمر البيطار.

ترك قريته، وباع كل ما يملك، وانتقل مع أسرته إلى قرية «الحفة» ذات الموقع الحصين، فى سبيل الثورة. التى كانت بالنسبة له مدرسة عملية صقلته، وعلمته الكثير من الدروس.

وللدور الخطير الذى قام به «القسام» فى الثورة ضد الفرنسيين، حكموا عليه بالإعدام، لما عرفوا من قوة نفوذه، وتأثيره فى الناس.

الانتقال إلى فلسطين

بعد إخفاق الثورة فى جبال صهيون، التجأ «القسام» مع ستة من رفاقه إلى فلسطين، حيث وصل إلى «حيفا» أواخر صيف ١٩٢١، ثم لحقت به أسرته بعد

حين، وكان وصوله إلى فلسطين إيذانًا ببداية مرحلة جديدة ومجيدة فى تاريخ النضال الفلسطينى ضد قوات الانتداب البريطانى وقطعان اليهود، التى جاءت تغتصب الأرض وتقيم وطنها القومى، الذى وعدهم به بلفور وزير خارجية بريطانيا على حساب عرب فلسطين.

منذ اليوم الأول لوصوله إلى «حيفا» لفت «القسام» إليه أنظار المصلين فى المسجد الذى لجأ إليه فى «حيفا» مع جماعته، حين انبرى بعد صلاة المغرب لتقديم درس دينى للمصلين.

واستقرت الأمور له ولأسرته فى حيفا، وبدأت حياة «القسام» النضالية منذ ١٩٢٢، وعمل مدرسًا فى المدرسة الإسلامية بحيفا، وكان خطيبًا وإمامًا لجامع الاستقلال فيها، وراح يزرع روح الجهاد والكفاح فى النفوس، مركزا فى دروسه الدينية على ضرورة التآخى والتلاحم والتناصر بين الناس من أجل حماية الوطن، مناديًا بإحياء فريضة الجهاد، كما كانت أيام الرسول ﷺ وأصحابه الكرام.

انتسب «القسام» سنة ١٩٢٦ إلى «جمعية الشبان المسلمين» فى «حيفا» ثم أصبح رئيسًا لها، لما رأى الأعضاء فيه من ثقة بالنفس وشدة التقوى والورع، والقدره على كسب ثقة الآخرين، وعُين سنة ١٩٢٩ مأذونًا شرعيًا من قِبل المحكمة الشرعية، فصار يخرج إلى القرى، وعرفه الناس وعرفهم، وازدادت شعبيته وذاعت شهرته.

مدرسة نضالية

كان «عز الدين القسام» شخصية متميزة، التقت فى شخصه مجموعة من المؤثرات، جعلته صاحب مدرسة فى النضال، تركت أثرها فى مسيرة الحركة الوطنية الفلسطينية، أثناء إقامته فى «حيفا» التى استمرت خمس عشرة سنة.

وقد انطبعت فى نفسه آثار سنوات الدراسة التى أمضاها فى مصر، كما استفاد من دروس الثورة السورية، فعرف شروط نجاح النضال.

وكان يحس بخطر الصهيونية، وبأنها جادة فى الوصول إلى هدفها، فكان يدعو الناس إلى الوقوف فى وجهها، بتجمعهم، واتحاد كلمتهم، وبالبعد عن الشقاق، والعودة إلى تعاليم السلف الصالح.

وإذا كان هذا الإحساس أمرًا معروفًا لا جديد فيه، فإن الجديد الذى ميّز القسام عن غيره، وأعطى حركته أو ثورته صفة خاصة هو تركيزه على الاستعمار البريطانى، وإدراكه بوضوح وجلاء، أن هذا هو العدو الرئيسى الذى تجب محاربته ومقاومته، تمتع «القسام» بهذا الوضوح فى تحديد العدو، فى الوقت الذى كانت فيه الحركة الوطنية الفلسطينية تتجنب الصدام مع بريطانيا، وتسعى إلى مفاوضتها.

الثورة المسلحة

آمن «القسام» مستفيدًا من دروس النضال التى عاشها، أن الثورة المسلحة هى وحدها القادرة على إنهاء الانتداب، والحيلولة دون قيام دولة صهيونية فى فلسطين. ومن الطبيعى أن تحتاج الثورة المسلحة إلى تخطيط سياسى وعسكرى، وإلى تعبئة الجماهير نفسيا لتأييد الثورة والاشتراك فيها، وإلى تنظيم سرى ثورى يُربى فيه المقاتلون عسكريًا وسياسيًا.

وكانت الثورة المسلحة المنظمة أمرًا غير مألوف بعد فى الحركة الوطنية الفلسطينية آنذاك، فلم يتعد النضال الإضراب والمظاهرات التى قد تقع خلالها مصادمات يُقتل فيها ويجرح البعض من العرب واليهود.

اتصف الشيخ «عز الدين» بقدرة فائقة على التنظيم واختيار الأعضاء والقيادة، وسبل الإمداد والتسليح، وكان يدقق فى اختيار الأعضاء، ويضع المرشح الذى يتوسم فيه الخير والاستعداد زمنا تحت المراقبة، إلى حين دعوته للعمل فى التنظيم من أجل إنقاذ فلسطين، وكان كل ذلك يتم فى إطار من السرية الكاملة.

ساعد «القسام» عمله مدرسًا وخطيبًا وإمامًا ومأذونًا شرعيًا، على معرفة الناس، وسبل إقناعهم والتأثير فيهم. وقد ربط القسام الجانب النضالى بالجانب الاجتماعى، فكان يهتم بتحسين أحوال الفقراء ومساعدتهم، ويسعى إلى مكافحة

الأمية بينهم، إيمانًا منه، بأن ذلك يعمق الوعى بين الجماهير، ويزيدها إيمانًا بالثورة، ويشحذ عزمها للكفاح المسلح، ولاسيما جماهير الحى القديم فى «حيفا» حيث كان يقيم «القسام»، وحيث كان يقيم العمال وفقراء الفلاحين الذين طردوا من أراضيهم، ولجأوا إلى «حيفا» طلبًا للعمل.

وكان الشيخ ذا شخصية جذابة، حسن السيرة والمعاشرة، محدثًا لبقًا وخطيبًا بارعًا، وكان بمقتضى عمله كمأذون شرعى يحضر حفلات الأعراس، ويتعرف إلى الناس، ويستقى الأخبار، ويتصل بسائر طبقات الشعب.

كان يراقب المصلين وهو يخطب فوق منبر المسجد، ويدعو من يتوسم فيهم الخير والاستعداد للتمرد ليقنعهم بالعمل لإنقاذ فلسطين مما يهددها من أخطار.

وكان القسام فى جميع مراحل عمله من الإقناع إلى ضم المناضلين إلى جماعته يستعين بالكتمان على تحقيق هدفه، فكان لا يبوح بالسّر الذى يحمله، وهو الدعوة إلى الثورة لمنع إقامة وطن قومى صهيونى فى أرض فلسطين، إلا لأشخاص قلائل بعد أن يدرس أنفسهم ويمتحن إخلاصهم لمدة قد تطول عدة سنوات.

وكان ينتقى أصحابه من أهل الدين والعقيدة الصحيحة، ويقوم بتدريبهم فى رحلات ليلية، كما كانوا يقومون بتحركات استطلاعية يتمرنون فى أثنائها على إصابة الهدف.

تألف أنصار «القسام» من العمال والفلاحين والباعة الذين كانوا يحضرون دروسه، فكان يحضهم على وجوب الجهاد، وينمى فى أنفسهم روح المقاومة استعداداً لحمل السلاح عندما يحين وقت الثورة.

التشكيلات السرية

أخذت نواة الحركة الثورية تتألف سريعا حول «القسام» وتتسع، وازداد

عـدد المنضمين إلى جهازه، الذى أداره بمهارة وحكمة ولباقة، وشكل «القسام» من أفراد المنظمة حلقات صغيرة، تتألف الواحدة منها من رقيب وخمسة أفراد.

ولم يكن يعرف أفراد الحلقة أى شىء عن الحلقات الأخرى وأفرادها، كانوا يعرفون فقط أن زعيمهم هو «القسام» الذى شكل مجموعات قيادية تتألف من كبار رجال التنظيم، منها مجموعة للتدريب العسكرى، ومجموعة لجباية الأموال، ومجموعة للاتصالات الشعبية والسياسية، ومجموعة لشراء السلاح وأخرى للتجسس على البريطانيين والصهيونيين وكانت أخطر هذه المجموعات، مجموعة الدعاية للثورة، ومهمتها الأساسية إقناع الناس بعدم جدوى التعاون مع الإنجليز أو الاعتماد عليهم، وبأن الجهاد فى سبيل الله والوطن هو الطريق الوحيد لبلوغ الأهداف. وكان من مهامها أيضا توجيه الناس للتعاون والتضافر والأخلاق الحميدة، ومقاومة ما كان يبذله الإنجليز والصهيونيين من جهود لشق وحدة الصف العربى، وصرف أنظار العرب عن المقاومة والكفاح.

جهاز الثورة

عُرف أكثر وأكبر المنضمين إلى جهاز الثورة بالشيوخ، على أنهم والشبان الذين انضموا تحت لواء «القسام»، ظلوا مجهولى الهوية والأسماء لا يعرفهم الناس.

وكانت مدينة «حيفا» تتقدم وتتطور، فانتقل الكثيرون من العرب من مناطق «القدس» و «نابلس» وغيرهما للعمل فيها، وتضاعف عددهم على مرّ الأيام، فوجدت فى «حيفا» تكوينات عامة قوية من العمال وغيرهم، كانت فى الحقيقة المعين الذى اختار منه القسام المؤهلين للعمل معه.

وكان «القسام» قد شكل فى عدد من قرى لواء الشمال تشكيلات مسلحة سرية من الشباب مهمتها مناوشة القوات البريطانية، ونُصرة المجاهدين فى حالة وقوع اصطدام مع الصهيونية أو الإنجليز ولما بدأت المنظمة أعمالها انضم إليها المزيد من الشباب الوطنى.

كانت مهمة تمويل حركة «القسام» ومدّها بالسلاح صعبة للغاية، بسبب الأحوال السائدة، وسريان مفعول أنظمة الطوارئ والقوانين الاستثنائية، وكانت

مصادر التمويل مع ذلك متعددة وإن كانت تتم بشكل سرى، منها: تبرعات أفراد أعضاء التنظيم، تبرعات من أبناء «حيفا»، كان يتولى جمعها سراً بعض أعضاء الحركة والرجال الوطنيين. وتبرعات من الجمعية الإسلامية فى «حيفا» تسجل فى ميزانيتها تحت بند مساعدة المعوزين من المسلمين.

وكان الحصول على السلاح أكثر صعوبة من الحصول على المال، وقد قدم كبار قادة المنظمة بعض البنادق والمسدسات القديمة، إضافة إلى الأسلحة التى هربها إلى «حيفا» بعض أنصار «القسام» ومريديه فى «جبلة» و «اللاذقية».

بداية الكفاح المسلح

كان «القسّام» دقيق التنظيم فقد وضع لثورته برنامجا من أربع مراحل هى: الإعداد النفسى، ونشر روح الثورة المسلحة، إنشاء حلقات سرية، تشكيل لجان قيادية لجمع التبرعات وشراء السلاح ثم الثورة المسلحة.

وكان يرمى أثناء تطبيق هذا البرنامج إلى الإسهام مع أصحابه، فى تهيئة أكبر عدد ممكن من المجاهدين، وتدريبهم وتجهيزهم للقيام بثورة عامة فى فلسطين، فى الوقت الملائم، وبعد اكتمال الإعداد، فلم يكن متعجلاً أمر إعلان الثورة، بل كان مؤمنا بالتأنى واستكمال التهيئة والإعداد، لهذا رفض أن يبدأ التنظيم للثورة العلنية بعد حادثة «البراق» سنة ١٩٢٩، لاقتناعه بأن الوقت لم يحن بعد لذلك.

إلا أن عدة عوامل واعتبارات هامة جابهت العرب فى عامى ١٩٣٣، ١٩٣٤ دفعت «القسام» ومنظمته إلى البدء بالعمل المسلح، قبل أن يتم المناضلون التأهب والإعداد، وكان من هذه العوامل والاعتبارات: تدفق الهجرة الصهيونية إلى فلسطين بصورة كبيرة وإندفاع الصهيونيين، تؤيدهم بريطانيا، فى التسلح وتشكيل المنظمات الإرهابية السرية، واستفحال خطر تسرب الأراضى إلى اليهود، وتفاقم أعمال السماسرة والخونة والجواسيس فى خدمة الأعداء.

تحت ضغط هذه العوامل، وفى ضوء تعطّش الشعب الفلسطينى إلى مقاومة الأعداء بالقوة، بدأ «القسام» العمل المسلح، ولكنه لم يخض فى بادئ الأمر ثورة مكشوفة ضد الأعداء، وآثر الضربات الخاطفة، والأعمال الفردية والمحلية، ليقينه بأن من شأنها إزعاج الأعداء ورفع معنويات الشعب، وتعميق الدعوة للتمرد والعصيان.

وقائع الثورة

عندما قرر «القسام» القيام بأعمال مسلحة ضد الأعداء، لم يكن الشعب أو الإنجليز، أو اليهود يعلمون شيئًا عن المنظمة القسامية، بينما كان الشيخ «القسام» يمارس وظائفه وأعماله فى «حيفا» ويظهر أمام الجميع. قام «القساميون» وتشكيلات الشباب المرتبطة بهم فور صدور قرار «القسام»، بسلسلة من الأعمال ضد المستعمرات الصهيونية، ودوريات الجيش البريطانى والشرطة، أشاعت هذه الأعمال القلق والذعر فى الأوساط الإنجليزية والصهيونية.

وانزعج الإنجليز واليهود، وأصابتهم حالة من التخبط، لعدم معرفة أصحاب هذه الأعمال ومن يقف وراءهم. ولم تقع معارك كبيرة مكشوفة بين القسامين والجيش، إذ اقتصرت أعمال المجاهدين على مهاجمة المستعمرات الصهيونية ودوريات الشرطة والجيش ثم الاختفاء، وهى من أساليب حرب العصابات.

وقد ألحقت هذه الأعمال خسائر كبيرة بالممتلكات والمزروعات الصهيونية، وأدت إلى قتل كثير من الإنجليز والصهيونيين، ووقعت اصطدامات شديدة وواسعة بعض الشىء بين المجاهدين وقوات السلطة فى كل من «أم الزيات» و «فرادة» و«عرابة» و «البطوف»، و «بيت جن» و «الناصرة»، و «جبل الكرمل» و «بلد الشيخ»، و «وادى الطبل بالكرمل» و «شعب» و «لوبية».

وفى عام ١٩٣٣ هاجم عدد من المجاهدين مستعمرة «نهلال» الواقعة قرب الطريق الرئيسى بين «حيفا» و «الناصرة»، وكان هجومًا مركزًا استعملت فيه القنابل والمتفجرات، مما ألحق بالمستعمرة خسائر كبيرة فى الأرواح والأموال.

خيانة وعقاب

أثار هذا الهجوم غضب الإنجليز والصهيونية فانطلقوا يُسخّرون مختلف وسائلهم للعثور على الذين قاموا بالهجوم على «نهلال». وبعد مرور ثلاثة أشهر على هذا الهجوم، وبفضل أعمال التجسس التى قام بها العملاء من رجال الشرطة تمكن الإنجليز من القبض على «صالح أحمد طه» ، «مصطفى على الأحمد»، و«خليل محمد عيسى» ـ أبى إبراهيم الكبير ـ ، و «أحمد الغلاينى» و «أحمد التوبة» وآخرين غيرهم، وقادوهم إلى المحاكمة، التى أصدرت حكمها بالإعدام على «مصطفى على الأحمد»، وبالسجن ٢٥ عامًا على «أحمد الغلاينى» وبرّأت الآخرين.

ورغم كل الضغوط على المجاهدين فى أثناء المحاكمة، رفضوا الاعتراف بوجود منظمة سرية، ولم يرد ذكر «القسام» خلال المحاكمة.

وعندما تأكد المجاهدون أن ضابطى الشرطة «حليم بسطا» و «أحمد النايف» هما اللذان وشيا بالمجاهدين وحرّضا الإنجليز عليهم، وأنهما كانا ينشطان لمعرفة أسرار المنظمة نفسها، اغتالهما المجاهدون فى وسط مدينة «حيفا» بعد أيام من انكشاف أمرهما.

ومن العمليات التى قام بها المجاهدون من أنصار «القسام» هجوم على مستعمرة «عتليت» قتلوا خلاله عددا من الصهيونيين، وتصدوا لقافلة من السيارات كانت تقل عمالاً صهاينة وأجهزوا على عدد منهم.

ومن الأعمال الأخرى البارزة التى قام بها المجاهدون ملاحقة باعة الأراضى والسماسرة وعملاء السلطة من العرب، وأفراد الشرطة الذين كانوا يمضون فى اضطهاد الوطنيين. وكان نصيب عدد كبير منهم الاغتيال.

واستمرت المصادمات بين الثوار وقوى السلطة، وازداد عدد الهجمات على المستعمرات الصهيونية، واتسعت عمليات اغتيال باعة الأراضى والسماسرة والعملاء. مما جعل الأعداء يكثفون جهودهم للكشف عن الجهة التى تقوم بهذه العمليات.

رفع معنويات الجماهير

حاول البريطانيون واليهود تصوير العمليات التى يقوم بها المجاهدون على أنها أعمال إجرامية هدفها السلب والنهب. مما دفع الشيخ «القسام» وجماعته إلى القيام بالثورة علنا، لرفع معنويات الجماهير، وإبراز الأهداف التى يجاهدون فى سبيل تحقيقها.

وقد أصبح الوضع فى عام ١٩٣٥ لا يحتمل مزيداً من تأجيل إعلان الثورة، فقد بلغ خطر الهجرة اليهودية حداً كبيراً، وأصبح تسلّح الصهيونية بمساعدة الإنجليز أمراً لا يمكن السكوت عليه. ولذلك كان لابد من بدء الثورة فى المنطقة الجبلية فى شمال فلسطين.

فى ليلة ١٢ نوفمبر ١٩٣٥ اجتمع القسّام مع أركان ثورته فى منزل «محمود سالم المخزومى» وقرروا إعلان الثورة، وكان أصحاب «القسّام» قد باعوا حلىّ زوجاتهم، وبعض أثاثهم، واشتروا به بنادق وذخائر، ثم قصدوا الجبال القريبة من «حيفا»، ولجأوا إلى أحراج بلدة «يعبد» من قضاء «جنين»، واختاروا قرية الشيخ «زيد» قاعدة لهم. فى ذات الوقت تسلل عدد كبير من جماعة «القسام» إلى مدينة «حيفا» لمساندة الهجوم المنتظر الذى سيشنه «القسام» وجماعته على المدينة، منطلقًا من أحراج «يعبد».

الجهاد أو الشهادة

علم الانجليز أن «القسامين» موجودون فى أحراج «يعبد»، وأنهم يستعدون للدخول فى معركة مع القوات الحكومية، وأن أهل القرى المجاورة أعدوا أنفسهم لمساعدة «القساميين»، ولم يكن يعلم الإنجليز أن عز الدين القسام كان على رأس رجاله، لذلك راحوا يفتشون «حيفا» بحثًا عنه.

أرسل الإنجليز قوات كبيرة حاصرت أحراج «يعبد» واصطدمت بنقاط الرصد التى أقامها القسّام. فقُتل جندى بريطانى، وبعض رجال الشرطة، الأمر الذى أثار البريطانيين، فأصدروا أوامرهم لقواتهم بضرورة اقتحام الأحراج ومنازلة

«القساميين»، وتعاظم عدد القوات البريطانية، تدعمها المصفحات والدبابات، فى حين قامت الطائرات البريطانية بطلعات استكشافية متواصلة لمعرفة مواقع القسامين وأعدادهم.

واستمرت المناوشات بين الجانبين نحو خمسة أيام، وعندما علم البريطانيون بوجود «القسام» بين رجاله، شددوا من هجومهم، وأرسلوا إليه بعض رجال الشرطة العرب لإقناعه هو ورجاله بالاستسلام، لكن «القسام» وأصحابه رفضوا هذا الطلب واختاروا الجهاد والشهادة، عندئذ تحركت قوات الإنجليز بمصفحاتها ودباباتها وطائراتها فى هجوم واسع النطاق على «القسامين»، وحين أدرك الثوار قوة الزحف البريطانى، نصح بعضهم الشيخ «القسام» بمغادرة الأحراج، وكان فى استطاعته اختراق الحصار والنجاة بنفسه وبمن يرافقه من رجاله، على أن يبقى الآخرون لمناوشة القوات الزاحفة، ولكن «القسام» رفض هذه النصيحة، وهيأ نفسه للقتال وللشهادة.

المعركة الكبرى

وقعت فى ٢٠ نوفمبر ١٩٣٥ المعركة الكبرى بين «القسامين» والأعداء، وقد استمرت أربع ساعات، هلك خلالها عدد غير قليل من رجال السلطة، واستشهد من القسامين الشيخ يوسف عبد الله، وأحمد الشيخ سعيد، وسعيد عطية أحمد، وأحمد مصلح الحسين، وجرح عدد آخر، وبعد الظهر استؤنفت المعركة، فاستشهد الشيخ «عز الدين القسام» وجُرِحَ عدد من رجاله، بينما سقط عدد منهم أسرى فى أيدى الإنجليز فنقلوهم إلى سجن نابلس. وقُتل من الجانب البريطانى أكثر من خمسة عشر جنديًا.

استطاع عدد من «القسامين» اختراق الحصار والوصول إلى منطقة الشمال الفلسطينية، وهم يحملون جثة قائدهم الشهيد، إلى مدينة حيفا.

وداع الأبطال

اضطرب الرأى العام الفلسطينى لدى سماعه أنباء المعركة، واستشهاد «القسام»، وأصاب الحادث فلسطين كلها بالألم والحزن، وخرجت الصحف تشيد

بالشهداء وببطولاتهم وثباتهم فى وجه الأعداء، وقد نُقل الشهداء إلى المدينة ملفوفين بالأعلام العربية.

وهُرع إلى «حيفا» عدد كبير من زعماء البلاد للاشتراك فى تشييع جثمان «القسّام» ورفاقه الشهداء، وغصت المدينة بوفود حضرت من جميع أنحاء فلسطين، فى حين قضى أهل «حيفا» ليلتهم بانتظار تشييع الجنازة وأعلنوا الإضراب العام فيها.

نُعى الشيخ «القسام» وصحبه من مآذن المسجد الأقصى ومساجد فلسطين، وصلّى الناس عليهم فى كل مكان صلاة الغائب، وحملت الجماهير نعش «القسام»، وصار موكب الجنازة مجللاً بالأعلام السورية والمصرية والعراقية والسعودية واليمنية.

ودُفن الشهيد فى مقبرة «الباجور» قرب بلدة «الشيخ» القريبة من «حيفا»، واستغرقت مسيرة الجنازة نحو ٤ ساعات، وتحولت إلى مظاهرة عاصفة، وقعت خلالها عدة اصطدامات دامية بين الجماهير وقوات الحكومة، جُرح فيها كثيرون من الجانبين.

استمرار الثورة

ترك استشهاد «القسام» ردود فعل عنيفة فى الأوساط الفلسطينية والعربية، فعمت المظاهرات الصاخبة مدن فلسطين وقراها، نادى خلالها المتظاهرون بوجوب الثأر للشهداء، والالتجاء إلى القوة المسلحة لمحاربة الأعداء، وجرت فى العواصم العربية مظاهرات ومهرجانات تحتفل بالقسّام ورفاقه الشهداء.

وكان لحركة «القسّام» واستشهاده أكبر الأثر فى إشعال نيران الغضب والثورة، وغدا الشعب برمته مؤمنًا بوجود النضال الفلسطينى المسلح.

لم يؤد استشهاد الشيخ «عز الدين القسام» وبعض زملائه فىٰ معارك أحراج «يعبد» إلى ما كان يأمله الأعداء من توقف الجهاد، فما لبث القساميون أن أعادوا تنظيم أنفسهم، واختاروا «خليل محمد عيسى» ـ أبا إبراهيم الكبير ـ لقيادة

منظمتهم التى ازداد عدد أفرادها بشكل كبير، لما أثارته بطولة «القسام» ورفاقه من حمية فى النفوس، حيث بادر الكثيرون من الشباب بالإنضام إلى صفوف المجاهدين، يحفزهم إلى ذلك استشهاد «القسام» والروح الثورية التى بثها فى حياته وجسّدها فى مماته.

وأصبح رجال «القسام» وجعًا فى قلب السلطات، حيث اختاروا شمال فلسطين (أقضية حيفا وعكا وصفد والناصرة) قواعد لأعمالهم، واعتصموا بصورة خاصة فى الجبال الشاهقة المعروفة فى شمال البلاد.

واستأنفوا شن هجماتهم الشديدة الموجعة على المستعمرات الصهيونية وقوات الجيش البريطانى والشرطة.

وقد شهدت دالية الكرمل وشعبا والمغار ولوبيه وصفوريه وغيرها، معارك خطيرة بين القسامين والأعداء، استشهد فيها بعض المجاهدين، وهلك من الأعداء كثيرون.

روح القسام

نعم مات «القسام» شهيدًا، ولكن روحه أيقظت الشعور الوطنى وأشعلت نيران الثورة وأوقدت الحماس فى نفوس أبناء فلسطين، وأرهب «القساميون» قوات العدو طوال الأشهر الستة التى أعقبت استشهاد قائدهم، ولما نشبت الثورة الفلسطينية فى مطلع مايو «آيار» ١٩٣٦، انضموا إليها، وقاموا بأعمال مجيدة تُسجل لهم بغبطة وافتخار.

وتمر الأيام ويبقى «القسام» رمزاً وعلمًا باقيا مرفوعًا عاليًا فى سماء الجهاد الفلسطينى، تتجسد روح «القسام» فى كل طفل فلسطينى يرمى بحجر فى وجه العدو الإسرائيلى، وكل فدائى يفجر نفسه بركان غضب يزلزل كيان إسرائيل.

ذهب القسام إلى جنة الخلد وتبقى كتائبه تواصل النضال حتى النصر. وعودة فلسطين السليبة إلى أهلها.